الفصل الثانى
بين الكناية والتعريض وما أشبههما

التعريض

لم يتعرض الإمام الرازى للتعريض فى كتابه نهاية الإيجاز، اللهم إلا فى بعض كلمات عند حديثه عن إنما [1] وقد عرض له فى مواضع من تفسيره، ونظرا لأنه متأثر فى كلامه عنه إلى حد كبير بكلام الشيخ عبد القاهر، وجار الله الزمخشرى؛ فقد وجدت من المفيد أن ألم برأييهما فى التعريض قبل الخوض فى حديثه عنه، ليظهر مدى تأثره بهما، وإفادته منهما.

أولا - رأى الشيخ عبد القاهر:

لم يفرق الشيخ عبد القاهر بين الكناية والتعريض؛ فجعله مرادفا للكناية، وجعل أيضا كلا من الرمز، والإشارة، والتلويح مرادفا للكناية، فقد قال وهو يشير إلى مزية الكناية عن نسبة: « ... وكما أن الصفة إذا لم تأتك مصرحا بذكرها، مكشوفا عن وجهها، ولكن مدلولا عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها، كذلك إثبات الصفة للشىء تثبتها له، إذا لم تلقه إلى السامع صريحا، وجئت إليه من جانب التعريض، والكناية والرمز، والإشارة كان له من الفضل والمزية، ومن الحسن والرونق، ما لا يقل قليله، ولا يجهل موضع الفضيلة فيه » [2].

ويلاحظ أن كلمة التلويح لم ترد فى كلامه الذى أسلفت، ولكنها جاءت بعيد ذلك أثناء توضيحه لمفهوم الكناية عن نسبة، فقد ذكر أنهم عندما يرومون وصف الرجل والثناء عليه بصفة من الصفات، فإنهم يدعون التصريح بها، ويكنون عن جعلها فيه بجعلها فى شىء يشتمل على الممدوح، ويتلبس به، فيتوصلون إلى ما أرادوا إثباته بمسلك يدق، وطريق يخفى كما فى قول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى ... فى قبة ضربت على ابن الحشرج

---

(١) ينظر الفخر الرازى والبلاغة العربية: ٢٥٢. (٢) دلائل الإعجاز: ٣٦٠.

فقد ترك التصريح بوصفه بهذه الصفات [1] : «وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها فى القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه . . .»[2] .

وعلى ذلك فإن كل كلمة من هذه الكلمات التى اعتبرها مترادفة يمكن أن تحل محل الأخرى، وتؤدى مؤداها، فتكون كل كناية تعريضا، وكل تعريض كناية، وما ينطبق على التعريض ينطبق على غيره من تلك الكلمات المتناظرة .

وقد لفت نظر الدكتور محمد جلال الذهبى فى هذا الصدد أن الشيخ عندما تكلم عن الكناية عن نسبة أردف لفظ الكناية إما بالتعريض، والرمز، والإشارة، وإما بلفظ التلويح، وخلص من ذلك إلى أن التعريض فى تقدير الشيخ مختص بالكناية عن النسبة، وأن الكناية عن النسبة أخفى وألطف وأدق من الكناية عن الصفة [3] .

وقد تبين لى أن الشيخ أردف الكناية بكلمة التعريض، وهو يذكر الكناية عن الصفة فى مطلع حديثه الذى نقل أستاذنا الدكتور فقرات منه، فقد قال :

«هذا فن من القول دقيق المسلك، لطيف المأخذ، وهو أنا نراهم كما يصنعون فى نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض كذلك يذهبون فى إثبات الصفة هذا المذهب . . .» [4] .

وهذا يدل على أن التعريض عنده يشمل الكناية عن الصفة أيضا، ويظهر أن فضيلته غض النظر عن مطلع حديث الشيخ ظنا منه أنه تقديم بين يدى الكناية، وبيان لمنزلتها، وليس فيه ما يضيف جديدا، ولو اطلع عليه، لأغناه عن تلك اللفتة التى أبداها .

---

(١) المصدر نفسه (بتصرف) .
(٢) المصدر نفسه : ٣٠٧ .
(٣) ينظر الفخر الرازى، والبلاغة العربية : ٢٥١ .
(٤) دلائل الإعجاز : ٣٠٦ .

ثانيا - رأى الزمخشرى:

إذا كان الشيخ عبد القاهر قد جعل الكناية، والتعريض، والتلويح، والرمز، والإشارة كلمات مترادفة، يمكن أن تحل إحداها محل الأخرى، فإن صاحب الكشاف قد فرق بين التعريض والكناية، وجعل التلويح مرادفا للتعريض فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ** ﴾ [البقرة: ٢٣٥]

« ... فإن قلت أى فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولك: طويل النجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرماد للمضياف، والتعريض أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم منى تقاضيا، وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح؛ لأنه يلوح منه ما يريده »[1].

فجعل المعنى الكنائى مذكورا بغير لفظه، والمعنى التعريضى ليس مذكورا، لا بلفظه ولا بغير لفظه، ولكنه مدلول عليه بالعبارة التعريضية، وألمح فى ظلال كلماته أن التعبير الكنائى يحدد المكنى عنه، ويرسم ملامحه وسماته، وكأنه بارز يرى ويشاهد، وأن العبارة التعريضية، وإن أشارت إلى المعنى التعريضى فى الجملة إلا أنها لا تحيط بجوانبه، ولا تلم بأطرافه؛ لأنها تحتاج إلى معونة السياق، وقرائن الأحوال، وهذا الاتجاه الذى ارتضاه صاحب الكشاف قد سلكه البلاغيون من بعده، واستقر الرأى لديهم على أن التعريض غير الكناية؛ لأن « المعنى الكنائى دلالة لفظ، والمعنى التعريضى دلالة فحوى »[2].

---

(١) الكشاف ١/١٤٣.

(٢) التعريض في القرآن الكريم، للدكتور إبراهيم محمد الخولى ١/١٠. وينظر حاشية السيد على المطول: ٤١٤. والمثل السائر ٣/٥٧.

موقف الإمام الرازى بين التعريض والكناية وأشباههما :

ترددت في تفسير الإمام الرازى مصطلحات الكناية، والتعريض، والرمز، والتلويح، والإشارة، وقد جمعت كلامه عنها من مواضعه المختلفة، وحاولت جاهدا أن أصل إلى تكوين رأى واحد يمكن أن ينسب إليه، أو فكرة معينة تربط بين هذه الأشياء فى نمط واحد، فأعيانى هذا الطلب وألفيته بعيدَ المنال؛ لأنه إن ذكر فى بعض المواضع ما يدل على أن الكناية والتعريض – مثلا – مترادفان نجده يذكر فى بعضها الآخر ما يدل على أنهما مختلفان، فلم يثبت على رأى واحد، أو يتخذ وجهة معينة، وتلك شنشنة ألفناها منه، فى كثير مما مضى من هذا البحث.

فإذا نظرنا إلى تعريفه للتعريض، وتفريقه بينه وبين الكناية، وجدناه يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ** ﴾.

« والتعريض فى اللغة ضد التصريح، ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصودة، ويصلح للدلالة على غير مقصوده، إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح، وأصله من عرض الشيء، وهو جانبه كأنه يحوم حوله، ولا يظهره، ونظيره أن يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك، لأسلم عليك، وأنظر إلى وجهك الكريم ولذلك قالوا: (وحسبك بالتسليم منى تقاضيا) [1].

والتعريض قد يسمى تلويحا؛ لأنه يلوح منه ما يريد، والفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية أن تذكر الشيء بذكر لوازمه، كقولك: فلان طويل النجاد، كثير الرماد، والتعريض أن تذكر كلاما يحتمل مقصودك، ويحتمل غير مقصودك إلا أن قرائن أحوالك تؤكد حمله على مقصودك » [2].

وهذا صريح فى أنه يرى أن التعريض مخالف للكناية، وأن التلويح مرادف للتعريض، وكأن المتوقع أن يلتزم تلك المخالفة بين التعريض والكناية، وما أشبههما

---

(١) هذا عجز بيت وصدره: أروح بتسليم وأغدو بمثله . ينظر حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف ٢ / ٤٣٠ .

(٢) التفسير الكبير : ٣ – ٢ / ١٤٠ .

فى تفسيره كله خصوصا أنه عرفهما، وفرق بينهما فى أوائل التفسير، ولكنه – كما قلت قبل ذلك – ذكر فى بعض المواضع ما يفيد أن التعريض والكناية لفظان مترادفان.

وأحسب أنه في هذا الاتجاه متبع سنن الشيخ عبد القاهر، وسائر على دربه، وحتى يكون ما فهمته عنه صادرا عن بينة فإننى أسوق أمثلة من حديثه يدل بعضها على ترادفهما، ويدل بعضها الآخر على اختلافهما.

١ – ترادف الكناية والتعريض :

ذكر عند قوله تعالى: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٩٢] ما يفيد أن الكناية والتعريض بمعنى واحد فقد قال: «وما تنفقوا من شيء فإن الله به يجازيكُم، قلّ أم كثر؛ لأنه عليم به، لا يخفى عليه شيء منه، فجعل كونه عالما بذلك الإنفاق كناية عن إعطاء الثواب، والتعريض فى مثل هذا الموضع يكون أبلغ من التصريح» (١).

فجعل التعريض، والكناية يتواردان على معنى واحد، وهذا يدل على أنهما سواء.

وقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **...ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا** ﴾ [النساء: ٣] وهو يتكلم عن معنى الكناية: «إن الإنسان إذا قال: فلان طويل النجاد، كثير الرماد، فإذا قيل له ما معناه؟ حسن أن يقال: معناه أنه طويل القامة، كثير الضيافة، وليس المراد منه أن تفسير طويل النجاد هو أنه طويل القامة، بل المراد أن المقصود من ذلك الكلام هو هذا المعنى، وهذا الكلام تسميه علماء البيان التعبير عن الشيء بالكناية، والتعريض، وحاصله يرجع إلى حرف واحد، وهو الإشارة إلى الشيء بذكر لوازمه...» (٢).

وواضح من حديثه أنه يشرح مفهوم الكناية، ويوضح حقيقتها، ووجود

---

(١) المصدر نفسه: ٤ – ٢/١٤٨. (٢) المصدر نفسه: ٥ – ١/١٨٤.

كلمة التعريض فى هذا الجو الكنائى الذى يحوطها من بين يديها ومن خلفها دليل جلى على أن التعريض بمعنى الكناية، ومرادف لها.

وذكر فى الموضع نفسه – وهو يوفق بين رأى الإمام الشافعى – رضى الله عنه – الذى يرى أن معنى قوله تعالى: ﴿ ... **أَلاَّ تَعُولُوا** ﴾ ألا تكثر عيالكم، ورأى أكثر المفسرين [1] الذين يرون أن معناه ألا تجوروا ولا تميلوا – «أن التفسير الذى ذكره الإمام الشافعى راجع عند التحقيق إلى التفسير الأول – وهو رأى أكثر المفسرين – لكن على سبيل الكناية والتعريض» [2].

وقد ألقى الضوء على هذه الكناية وذلك التعريض فبين أن «كثرة العيال مستلزمة للميل والجور، والشافعى – رضى الله عنه – جعل كثرة العيال كناية عن الميل والجور، لما أن كثرة العيال لا تنفك عن الميل والجور؛ فجعل هذا تفسيرا له، لا على سبيل المطابقة، بل على سبيل الكناية والاستلزام» [3].

وواضح من عطفه التعريض على الكناية أن مفهومهما واحد، وأن التعريض يرتدى ثوب الكناية، ويدخل معها فى تعريف واحد، وهو إطلاق اللازم، وإرادة الملزوم، أو العكس – على ما سبق بيانه –.

وقد وقفت أمام هذه الأمثلة التى أوردتها عنه، وتدل صراحة على أن التعريض نظير للكناية، وأن دلالته لفظية مثلها سواء بسواء – أحاول أن أجد لها تخريجا، يجعل التعريض مخالفا للكناية كى تتلاءم مع تفريقه بينهما عند تفسير آية البقرة التى سلف ذكرها، حتى هممت أن أحمل كلمة التعريض فى تلك الأمثلة على معناها اللغوى – ضد التصريح – ولكنى ضربت عن هذا الأمر صفحا؛ لأنه سيكون تعسفا فى الفهم، وتمحلا فى التخريج؛ إذ كيف يتأتى أن يكون أحد اللفظين محمولا على معناه الاصطلاحى والآخر على معناه اللغوى دون دليل؟.

---

(١) ينظر المصدر نفسه: ٥ – ١/١٨٣. (٢) ينظر المصدر نفسه: ٥ – ١/١٨٥.

(٣) المصدر نفسه والموضع.

ولعله عندما ذكر هذه الأمثلة كان يستحضر رأى الشيخ عبد القاهر فى جعلهما مترادفين، فسلك سبيله، وسار على هديه.

٢ - التعريض ليس مرادفا للكناية :

ذكر الإمام الرازى فى مواضع أخرى معانى تعريضية مستوحاة من السياق وقرائن الأحوال، بعيدة عن الكناية ودلالتها اللفظيةّ ولذلك لم يذكر كلمة الكناية مع كلمة التعريض أثناء تناوله لهذه المعانى، فقد تساءل عند قوله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿ **وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ** ﴾ [البقرة:٤١]. «كيف جعلوا أول من كفر به وقد سبقهم إلى الكفر به مشركو العرب؟» (١).

وأجاب عن هذا التساؤل بوجوه: **أحدهما**: «أن هذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به؛ لمعرفتهم به، وبصفته، ولأنهم كانوا هم المبشرون بزمان محمد ﷺ والمستفتحون على الذين كفروا به، فلما بعث كان أمرهم على العكس لقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ** ﴾ (٢) [البقرة:٨٩].

وهو فى هذا التعريض متأثر بكلام صاحب الكشاف مقتبس بعض عبَارَاته، فقد قال وهو يتكلم عن هذه الآية: « ... وهذا تعريض بأنه كان يجب أن يكونوا أول من يؤمن به؛ لمعرفتهم به، وبصفته، ولأنهم كانوا المبشرين بزمان من أوحى إليه، والمستفتحين على الذين كفروا به، وكانوا يعدون أتباعه أول الناس كلهم فلما بعث كان أمرهم على العكس» (٣).

وواضح أن المعنى التعريضى وهو كون بنى إسائيل يجب أن يكونوا أول من يؤمن به ليس مدلولا عليه بنفس العبارة التعريضية (ولا تكونوا أول كافر به) بل هو أشبه بأن يكون مضادا لها، وهذا يؤكد أن المعنى التعريضى حاصل عند اللفظ لا به (٤) بمعونة السياق، وقرائن الأحوال.

---

(١) التفسير الكبير: ٢ - ١/٤٣.
(٢) المصدر نفسه والموضع.
(٣) الكشاف ١/٦٥.
(٤) ينظر الطراز ١/٣٨٣.

وقد ألمح الإمام الرازى إلى أن السياق أعان على فهم هذا التعريض، وأفصح عنه عندما أشارا إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ** ﴾ [البقرة: ٨٩].

فبين أنهم كانوا مترقبين لمجيئه، متطلعين إلى بزوغ نوره، فلما جاءهم كفروا به ولا يضر تأخر هذه الآية فى الترتيب عن آية التعريض، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا.

وقد ذكر أستاذنا الدكتور إبراهيم محمد الخولى فى دراسة وافية عن التعريض فى القرآن الكريم أن «السياق جملة من القرائن اللفظية الداخلية، قد تسبق العبارة التعريضية، وقد تعقبها» (١).

وقرر فى هذا الصدد أيضا «أن القرآن كله سياق لكل آية، ولكل عبارة فيه» (٢).

ومن هذا القبيل ما ذكره الإمام الرازى عند قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٩] فقد تساءل كيف ينقم اليهود على المسلمين مع كون أكثر اليهود فاسقين؟ وأجاب عن هذا التساؤل بوجوه: **أحدها** «أن قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ تخصيص (٣) لهم بالفسق، فيدل على سبيل التعريض أنهم لم يتبعوهم على فسقهم، فكان المعنى «**وما تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا وما فسقنا مثلكم**» (٤) ويقول عند قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة

---

(١) التعريض فى القرآن الكريم ١ / ٧١. (٢) المرجع نفسه ١ / ٧١.

(٣) ليس فى الآية تخصيص بالطرق المعهودة عند البلاغيين، ويبدو أنه يقصد التخصيص عند الأصوليين، وهو من أئمتهم؛ لأن التخصيص عندهم يمكن أن يدل على إثبات الحكم للشىء، أو نفيه عنه، دون نظر للمسكوت عنه. ينظر دلالة الألفاظ عند الأصوليين للدكتور محمود توفيق محمد سعد: ١٥٨.

(٤) التفسير الكبير ٢٦ / ٣٧.

والسلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

«ومعنى قوله: ﴿عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أرجو ألا أكون كذلك، وإنما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]. وأما قوله: ﴿شَقِيًّا﴾ مع ما فيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم فى دعاء آلهتهم على ما قرره أولا فى قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ (١) [مريم: ٤٢].

وظاهر كلامه فى هذه الآية يوحى بأن التعريض فى كلمة ﴿شَقِيًّا﴾ وحدها، ولكن التأمل فيه، يدل على أن التعريض إنما هو فى العبارة بأسرها؛ لأن هذه الكلمة ليست مستقلة بإفادة المعنى التعريضى.

وقد ذكر صاحب الطراز أن التعريض إنما يكون فى الجمل المترادفة، والألفاظ المركبة، ولا يرد فى الكلم المفردة بحال والسر فى ذلك هو أن دلالته على ما يدل عليه لم تكن من جهة الحقيقة، ولا من جهة المجاز... وإنما دلالته كانت من جهة القرينة، والتلويح والإشارة، وهذا لا يستقل به اللفظ المفرد، ولكنه إنما ينشأ من جهة التركيب، فلأجل هذا كان مختصا بالوقوع منه» (٢).

ومن هذا القبيل أيضا ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿... يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٣].

فقد ذكر فى هذه الآية وجوها أحدها: «أن هذا تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذى يخلد صاحبه فى الدنيا بالذكر الجميل، وفى الآخرة فى النعيم المقيم» (٣).

وهو فى هذه الآية آخذ عن جار الله الزمخشرى، ناقل عنه، فقد جوز أن يكون فى الآية «تعريض بالعمل الصالح، وأنه هو الذى أخلد صاحبه فى النعيم، فأما المال فما أخلد أحدا فيه» (٤).

---

(١) المصدر نفسه: ١١ - ١/٢٣٠ - ٢٣١.
(٢) الطراز ١/٣٩٦ - ٣٩٧.
(٣) التفسير الكبير: ١٦ - ٢/٩٣.
(٤) الكشاف ٤/٢٣٣.

وقد ظهر من خلال هذه الأمثلة التى جعل فيها التعريض مستقلا بنفسه، بعيدا عن الكناية غير مرادف لها، أنه يتمثل رأى الزمخشرى في التفريق بين التعريض والكناية، ويمكننى بعد إيراد هذه الصور المتفرقة التى تدل على تداخل التعريض والكناية عنده أحيانا، وتمايزهما أحيانا أخرى أن أقول: إن صورة التعريض فى ذهنه كانت غير مستقرة ولا واضحة.

الرمـــــز

بينت فيما سلف أن الإمام الرازى جعل التعريض أحيانا مرادفا للكناية، وأحيانا أخرى مخالفا لها، واعتبر التلويح مرادفا للتعريض، وقد حان الوقت لمعرفة موقفه من الرمز، وهل جعله مرادفا للكناية والتعريض ونظائرهما كما فعل الشيخ عبد القاهر، أو جعله مرادفا للتعريض وما أشبهه دون الكناية، أو جعله أمرا قائما بذاته مخالفا لهذه الأشياء جميعا ؟

وقد حاولت الإجابة عن هذه التساؤلات، فتتبعت المواضع التى ذكر فيها الرمز وحده، أو مقرونا بغيره، وقد ظهر لى من خلال كلامه أنه قد استعمل الرمز فى بعض المواضع بمعنى الكناية، واستعمله فى مواضع أخرى بمعنى التعريض، أو الإشارة وسأتناول إن شاء الله تعالى – فيما يأتى هذه الاستعمالات :

أولا – الرمز والكناية :

جعل الإمام الرازى الرمز والكناية يتعاقبان على تعبير واحد، فقد ذكر عند قوله تعالى: ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ** ﴾ [المائدة: ٧٥].

أن بعضهم قال: «إن قوله ﴿ **كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ** ﴾ كناية عن الحدث؛ لأن من أكل الطعام فإنه لابد وأن يحدث [١] وقد ضعف هذه الكناية من وجوه:

الأول : أنه ليس كل من أكل أحدث، فإن أهل الجنة يأكلون ولا يُحْدِثُونَ.

---

(١) التفسير الكبير: ٦ – ٢/ ٦٥.

الثانى : أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه [1] ليس بإله، فأى حاجة بنا إلى جعله كناية عن شيء آخر.

الثالث : أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلها، لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه، كيف يعقل أن يكون إلها للعالمين؟ » [2] .

وصرح في موضع آخر بأن هذا التعبير نفسه رمز، فقد قال عند قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ** ﴾ [القيامة: ٣٧] « ما الفائدة فى **يُمْنَىٰ** فى قوله: ﴿ **مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ** ﴾ ؟ قلنا فيه إشارة إلى حقارة حاله، كأنه قيل: إنه مخلوق من المنى الذى جرى على مخرج النجاسة، فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد عن [3] طاعة الله تعالى إلا أنه عبر عن هذا المعنى على سبيل الرمز كما فى قوله تعالى فى عيسى ومريم: ﴿ **كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ** ﴾ والمراد منه قضاء الحاجة » [4] .

وهكذا نراه قد سمى قوله تعالى: ﴿ **كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ** ﴾ فى تفسير سورة المائدة كناية، أو إن شئنا الدقة حكى أنه كناية، وفى تفسير سورة القيامة سماه رمزا، وقد يقال: ربما دل صنيعه على أن الرمز غير الكناية؛ لأنه ضعف كونه كناية، وجعله رمزا.

والجواب عن ذلك فيما أحسب، أنه عندما جعله رمزا قال: والمراد منه قضاء الحاجة، وهذا بعينه معنى الكناية، كما ذكره بعض السابقين [5] فثبت أنه جعل الرمز بمعنى الكناية.

ثانيا - الرمز والتعريض :

استعمل الإمام الرازى فى مواضع من تفسيره الرمز بمعنى التعريض، فعطف كلمة التعريض على كلمة الرمز، وفى هذا إشعار بأن معناهما واحد.

---

(١) أى رسول الله عيسى عليه السلام . (٢) المصدر نفسه والموضع .

(٣) فى أساس البلاغة: تمرد علىّ، وفى لسان العرب: مرد على الأمر يمرد مرودا . . . . . مادة (مرد) . (٤) التفسير الكبير : ١٥ - ٢ / ٢٣٤ .

(٥) ينظر الكامل، للمبرد ٢ / ٢٩٢ ، والعمدة ١ / ٢٦٨ .

فقد قال عند قوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ إبراهيم: ٣٩].

وهو يوضح المناسبة بين هذه الآية وقوله قبلها: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ** ﴾ [إبراهيم: ٣٨] « . . . كأنه كان فى قلبه [١] أن يطلب من الله إعانتهما، وإعانة ذريتهما بعد موته، ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب، بل قال: ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ** ﴾ أى إنك تعلم ما فى قلوبنا وضمائرنا، ثم قال: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ . . .** ﴾ وذلك يدل ظاهرا على أنهما يبقيان بعد موته، وأنه مشغول القلب بسببهما، فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض. . . ثم قال: ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ واعلم أنه لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الإيضاح والتصريح قال: ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴾ أى هو عالم بالمقصود سواء صرحت به أو لم أصرح. . . » [٢].

فذكر كلمة الرمز مقترنة بكلمة التعريض مرتين فى هذا الموضع، وواضح من خلال حديثه أن الرمز بمعنى التعريض فقد لمح أن قوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ . . .** ﴾ تحوطه آيات الدعاء من بين يديه ومن خلفه، فحمله على معنى تعريضى، وهو الدعاء لهما بالخير بعد موته، وهذا المعنى ليس مفهوما من الكلمات نفسها، بل من سياقها، وقرائن الأحوال من حولها، فإبراهيم – صلوات الله وسلامه عليه – يدعو هذه الدعوات، وقد تقدمت به السن، وبلغ من الكبر عتيا، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من لقاء ربه، وقلبه مشغول بهما، ويبدو لى – والله أعلم – أنه يقدم بهذا الحمد بين يدى الله تعالى حيثيات هذا الدعاء التعريضى، وهى أنه رزقهما على الكبر، فلن تطول إقامته بينهما، يرعاهما، ويدبر شئونهما.

وقال عند قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ**

---

(١) أى فى قلب خليل الله إبراهيم عليه السلام.

(٢) التفسير الكبير: ١٠ – ١/١٤١ – ١٤٢.

﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] «وفى قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ دليل على أن الأولى له ألا يفعل، كما أنك إذا قلت للمريض، إن كنت تأكل الفاكهة، فكل التفاح، كان معناه أن الأولى بك ألا تأكله، فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض على أن الأولى تركه» (١).

ثم ذكر المرتبة الثانية التى اشتملت عليها الآية فقال: «الانتقال من التعريض إلى التصريح وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام؛ لأن الرحمة أفضل من القسوة والإنفاع أفضل من الإيلام» (٢).

فنراه فى أول الأمر قد أردف كلمة الرمز بكلمة التعريض، وجمعهما فى سمط واحد، ثم ذكر فى المرتبة التى أعقبتهما قوله الانتقال من التعريض إلى التصريح... فاستبدل بالكلمتين معا كلمة التعريض وحدها، وهذا دليل على أن الرمز والتعريض بمعنى واحد.

ومن هذا القبيل ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿...وإن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فقد قال: «... ثم حكى الله تعالى عن هذا المؤمن (٣) حكاية ثالثة (٤) فى أنه لا يجوز إيذاء موسى عليه السلام فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (٥) وتقرير هذا الدليل أن يقال: إن الله تعالى هدى موسى - عليه

---

(١) أى ترك العقاب، المصدر نفسه: ١٠ - ٢/١٤٣.

(٢) المصدر نفسه والموضع.

(٣) أى مؤمن آل فرعون.

(٤) الأولى قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ...﴾. والثانية قوله فى نفس الآية: ﴿إن يك كاذبا فعليه كذبه ...﴾ [غافر: ٢٨].

(٥) فى التفسير (مرتاب) بدلا من كذاب والصواب ما ذكرته، ويظهر أنه خطأ من النساخ؛ لأن الكلمة ذكرت صحيحة بعد ذلك بقليل.

السلام – إلى الإتيان بهذه المعجزات الباهرة، ومن هداه الله إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفا كذابا، فهذا يدل على أن موسى عليه السلام ليس من الكاذبين، فكان قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ** ﴾ إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض...» (١).

وقد يذكر كلمة الرمز وحدها، ولكن توضيحه لمفهومها يظهر أنها بمعنى التعريض، يقول عند قوله تعالى: ﴿ **يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ١٥٣].

فقد قال: «ثم قال – الله تعالى – ﴿ **فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ** ﴾ يعنى لم نستأصل عبدة العجل ﴿ **وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾ يعنى أن قوم موسى – عليه السلام – وإن كانوا قد بالغوا فى إظهار اللجاج والعناد معه، لكنا نصرناه، وقويناه، فعظم أمره ،وضعف خصمه، وفيه بشارة للرسول – ﷺ – على سبيل التنبيه والرمز بأن هؤلاء الكفار، وإن كانوا يعاندونه فإنه بالآخرة يستولى عليهم، ويقهرهم» (٢).

وكون قوله تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾ بشارة لرسول الله محمد – ﷺ – بنصرته على أعدائه، وقهرهم، والاستيلاء عليهم، ليس مَدْلُولاً عليه بمنطوق هذه الألفاظ، ولكنه مفهوم من إيحاءاتها الجانبية وإشعاعاتها الهادئة التى تكشف عن هذا المعنى التعريضى الذى أشار إليه، وتظهر صورته.

ثالثا – الرمز والإشارة :

ذكر الإمام الرازى كلمة الإشارة معطوفة على كلمة الرمز فى أحد المواضع من تفسيره فقد قال عند قوله تعالى: ﴿ **فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ [غافر: ٧].

---

(١) التفسير الكبير: ١٤ – ١/ ٦٠. (٢) المصدر نفسه: ٦ – ١/ ٩٧.

« . . . فإن قيل لا معنى للغفران إلا إسقاط العذاب، وعلى هذا التقدير، فلا فرق بين قوله: فاغفر لهم، وبين قوله: ﴿ **وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ قلنا دلالة لفظ المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على الرمز والإشارة، فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز والإشارة، أردفوه بذكره على سبيل التصريح؛ لأجل التأكيد والمبالغة »(١) .

فنراه عطف الإشارة على الرمز مرتين، ولم أجد فى تفسيره – حسب جهدى – موضعا آخر اجتمعت فيه الإشارة مع الرمز، أو أحد نظرائه إلا فى هذا الموضع، وقد تأملت كلامه، لأقف على مراده من مصطلح الإشارة، وهل اكتسب من الرمز معنى الكناية أو معنى التعريض؟

وقد بدا لى أنهما معا بمعنى الكناية، لا بمعنى التعريض لأمرين:

أحدهما : أنه جعل الرمز والإشارة فى لفظ المغفرة وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة بـ ﴿ **فَاغْفِرْ . . .** ﴾ وهى لفظ مفرد لا يتأتى فيه التعريض – كما أوضحت قريبا – .

ثانيهما : أن دلالة المغفرة على إسقاط عذاب الجحيم، أو وقايتهم منه – فيما يبدو – من دلالة الملزوم على اللازم، إذ أن غفران الذنوب يلزمه – تكرما من الله تعالى – الوقاية من عذاب الجحيم، والتلازم بين المعنيين يكون فى الكناية، لا فى التعريض.

ويؤيد هذا الفهم أن الألوسى – رحمه الله – قال وهو يوضح معنى ﴿ **وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ : « . . أى واحفظهم عنه تصريح بعد تلويح، للتأكيد، فإن الدعاء بالمغفرة يستلزم ذلك، وفيه دلالة على شدة العذاب »(٢) .

وهو بذلك موافق للإمام الرازى، وإن بدل مكان الرمز والإشارة التلويح.

وكونه قد جعل الدعاء بالمغفرة يستلزم الوقاية من عذاب الجحيم، دليل بيّن على أن التلويح فى كلامه بمعنى الكناية؛ لأن التعريض لا استلزام فيه.

---

(١) المصدر نفسه : ١٤ – ١/٣٨ . (٢) روح المعانى : ٨ – ٢٤/٤٧ .

وبعد هذه الرحلة القصيرة التى قطعناها مع الرمز، وظهر لنا من خلالها أنه أتى عنده بمعنى الكناية، وبمعنى التعريض والإشارة، يتبين لنا أن هذه المصطلحات كانت متداخلة عنده، ولم يفصل بينها فصلا دقيقا، بل جعلها أحيانا مترادفة على طريقة الشيخ عبد القاهر، وجعل التعريض والتلويح والرمز أحيانا أخرى مخالفة للكناية، مفهومة من السياق، وقرائن الأحوال، مستلهما فى ذلك طريقة صاحب الكشاف، وسائرا على نهجه.

وقد سار فى هذا الاتجاه صاحب الطراز فقال: « ... فأما ما كان من التلويح والرمز والإشارة، فكلها مندرجة تحت ما ذكرناه من حقيقة التعريض؛ لاتفاقها فى الدلالة على مقصود واحد ... » [١].

على حين جعل السكاكى الرمز والتلويح والإشارة كنايات متفاوتة فى القرب والبعد والوضوح والخفاء [٢].

* * *

(١) الطراز ١ / ٤٢٦ .   (٢) المفتاح : ١٩٤ .